

المأحد، 30 يونيو 2013 - 01:37

في البداية ما هي الأيديولوجية؟ إنها ترجع إلى كلمة يونانية قديمة مكونة من (إيديا) = فكرة، و(لوجيا) = بمعنى علم أو خطاب .

وبمفهومها الحديث هي مجموعة منظمة من الأفكار والتصورات تشكل رؤية متماسكة للقضايا والأحداث التي تتعلق بتنظيم حياة الأفراد والمجتمعات، ودفعها للسير في اتجاه معين .

وللأيديولوجية عدة خصائص أساسية تتمثل في:

(1) تماسكها من الناحية المنطقية أو العقلية.

(2) سلطتها المطلقة على أفكار الأفراد الذين يقتنعون أو يؤمنون بها.

(3) توجيهه تقييم الأفراد لما يمرون به من مواقف على أساس مبادئها.

(4) تحفيزهم على العمل في اتجاه معين، ورفض كل ما يخالفه من اتجاهات.

من أمثلتها التي تحققت في التاريخ الحديث: الماركسية، والاشتراكية، والرأسمالية، والنازية، والصهيونية، والديمقراطية، والقومية، كما انها قد تدخل المجال الديني فتأخذ شكل مذاهب تؤمن بها بعض الفرق التي يطلق عليها حاليا مصطلح: الإسلام السياسي .

ومما ألاحظه أنا شخصيا على كل هذه الأيديولوجيات أنها لم تنجح حتى الآن نجاحا كاملا ومؤكدا في تغيير مجرى حياة البشر إلى الأفضل، بل إنها نشأت، وتطورت، ثم انتشرت وسيطرت، ولكنها في النهاية سقطت سقوطا مريعا، لم يكن يتصوره أحد، لا من أتباعها الذين كانوا أشد حماسة لها، ولا من المتابعين المحايدين لها، والذين كانوا يراقبونها تكتسح عقول الجماهير فلا يتصورون أنهم سوف يلفظونها في يوم من الأيام.. وأوضح مثال على ذلك، ما حدث للشيوعية أو الماركسية التي طبقها الاتحاد السوفيتي على مئات الملايين من مواطنيه، وحاول نشرها في مختلف بلاد العالم، وأقام لها التماثيل، وحنط من أجلها الموتى، وأنفق على الرعاية لها ما لا يمكن إحصاؤه ولما تصوره، ثم في يوم من الأيام وجدناها تنهار، ولما تجد من يتحسر عليها، أو يذرف دمعة واحدة فوق قبرها !

ومثال آخر: يحدث حاليا للدراسات السياسية، التي نشأت وتطورت وانتشرت في الولايات المتحدة الأمريكية، ودول أوروبا، وبعض الدول في شرق آسيا، وفي لحظة واحدة اهتزت بنوكها، وشركات تأمينها، وتعرض كبار الأشخاص الذين يمتلكونها، وها هي حاليا في طور الاحتضار الأخير، ومحاولات التماسك قبل لحظة السقوط النهائي .

ومثال ثالث: يمكن أن نقف عليه من بعض التسجيلات التلفزيونية التي تبرز الحشود الألمانية وهي تصغى لهتلر، وتأمّر بأمره في الانطلاق إلى غزو أوروبا والعالم كله، ثم في لحظة واحدة، تختفي النازية، وتصبح لعنة على من آمن بها، وكذلك على من عايشها ولم يعترض عليها !

إن المشكلة في كل الأيديولوجيات أنها تنشأ أولا في عقول مجموعة من أذكى البشر، الذين يقومون ببلورتها في نظام عقلي منسق، ثم يحسنون عرضها على الجماهير التي لا تستخدم عقولها عادة بشكل نقدي جيد، وما تلبث أن تتحول من عقولهم الساذجة إلى قلوبهم المصافية، فتصبح (عقيدة) . والعقيدة إذا دخلت قلب الانسان ضحى من أجلها بماله وحياته .

والوجه الآخر للمشكلة أن الأيديولوجيات لا تخرج من الواقع نفسه، رغم أنها تستغل ما يوجد عادة فيه من سلبيات، كما أنها لا تتابع حركته اليومية المتغيرة. وهذا معناه أنها تحاول أن تفرض قلوبها الثابتة على أمر متغير . وهنا لابد من التفرقة بين النظام الأيديولوجي والمبادئ الأيديولوجية

لم لا ينبغي أبدا أن يكون ثابتا ولما موحدا، أما المبادئ فهي التي تظل قائمة، لكنها تشبه النجوم التي يهتدى بها المبحرون في السفن وهي في السماء، لا تتدخل في قراراتهم التي يتخذونها عندما يواجهون جيل جليد، أو يتعرضون لمياه ضحلة !